المصدر: القبس

التاريخ: ١٩٨٢/٢/٤

لوموند / الفرنسية

بعد مرور اربعة اشهر على رحيله ... مصر لا تريد ان تتذكر رئيسها السابق

طائرة هليكوبتر خاصة من القاهرة الى الاسكندرية لإحضار "بسبوسة" لحفيد السادات

« ما هي اوجه التغيير التي وجدتموها في مصر ؟ » .

هذا هو السؤال الذي يوجهه كل مصري ، وزيرا كان أم خبازا ، للزوار الاجانب . ولكن المصريين وهم يوجهون هذا السؤال يتفادون تحديد الفترة المعنية بالتغيير . وواضح أن المقصود هو : التغيير الذي حدث بعد اغتيال السادات . ولكن ذكرى الاغتيال ، كذكرى السادات هي ما يحاول المصريون طردها من اذهانهم كذكرى ملعونة تطاردهم .

والمصريون المعروفون بعاطفيتهم شهدوا ، دون ان يتاثروا كثيرا ، على شاشات اجهزة التلفزيون ، السادات « بطل الحرب والسلام » يلقى حتفه كسلطان مملوكي عادي . وقد يعود هذا الشعور جزئيا الى الحذر ، وجزئيا الى الاحساس باللامبالاة ازاء ما يحدث .

ومع ذلك يبدو هذا الحدث الذي هز نصف الكرة الارضية ، بعد مضي اربعة اشهر على وقوعه وكانه حدث قبل عدة قرون .

والعديد من المصريين يعربون عن اسفهم ، وبصوت عال ، لان محاكمة قتلة السادات ، وصدور الاحكام باعدامهم ، أو بحبسهم ، لم تتم بسرعة عقب عملية الاغتيال التي

جرت في السادس من شهر اكتوبر ١٩٨١ ، وذلك لكي ينتهي الحديث عن هذه القضية .

وجميع المراقبين في بيروت وباريس يؤكدون « أن الشعب المصري لم يغفر للسادات معاهدة السلام المنفردة التي وقعها مع اسرائيل ، كما لا يغفر له اعادة الرأسمالية الى مصر » ، لكن الزائر لمصر يلاحظ دون مشقة ان غالبية المصريين ما زالوا يعتبرون السلام كانجاز ايجابي ونهائي ، كما أن عملية اعادة توجيه سياسة واقتصاديات البلاد نحو الغرب ، حتى اذا لم تفلح في تلبية وتحقيق كل امال الجماهير ، فانها، بصفة عامة ، لا تتعرض الى المطالبة باعادة النظر فيها .

وعلى الرغم من أن الاميركيين يرتكبون في وادي النيل الاخطاء السيكولوجية والسياسية نفسها التي سبق لهم ارتكابها في بلدان اخرى من العالم الثالث الا أنهم لم يصبحوا « غير شعبيين » بينما لا يزال السوفيت غير شعبيين بعد مرور عشر سنوات على رحيلهم عن مصر .

« وتخلي » السادات عن القضية الفلسطينية أو بمعنى أصبح تخليه عن مشروع استعادة الضفة الغربية لنهر الاردن وقطاع غزة بقوة السلاح، لانه لم يتخل ابدا عن محاولاته استعادة هذه الاراضي بالطرق الدبلوماسية . يلاقي هوى في نفوس المصريين ، وهذه حقيقة واقعة شئنا أم أبينا . من الجائز أن يعود هؤلاء في يوم من الايام الى ميولهم العربية ، لكن في الوقت الحاضر « فان العرب بالنسبة لهم هم الاخرون » .

وردود الفعل التي صدرت عن انور السادات ازاء ضم اسرائيل لمدينة القدس ، وردود الفعل التي صدرت عن حسني مبارك بعد ضم الدولة اليهودية لمرتفعات الجولان السورية ، وصفتها الدوائر الفلسطينية والسورية بانها لينة الى حد الفضيحة . ولكن ماذا قال الشارع المصري الذي غرق في الشعور بالانانية الوطنية : انه يقول « القدس ، الجولان يا لها من خسارة وهو أمر غير مقبول .. ولكن ما حدث لم يحدث عندنا » و « ندعو الله ان يدفع اسرائيل لتعيد لنا سيناء بكاملها » و « هل العرب ما زالوا يرغبون في الاستمرار في خوض القتال بواسطة المصريين ، لقد جاءهم دورهم ليلقوا حتفهم » .

كما يجب ايضا عدم بحث اسباب ابتعاد الشعب المصري عن الرئيس المصري الذي يعيش ، هو وعائلته ، حياة ترف .. وقد ذكرت احدى الصحف الافريقية ان الرئيس المصري السابق كان يمتلك ٨٤ استراحة خاصة في الوقت الذي عاش فيه متنقلا بين الفيلات العشر التي تمتلكها الدولة والتي كان يستخدمها الرئيس جمال عبد الناصر وهي منازل يتوفر فيها مستوى متوسط من الراحة ولم يستخدم السادات القصور الملكية لكن هذا لا يمنع أن السادات تصرف ذات مرة تصرف الوصوليين . فعندما كان يقضي اجازة في برج العرب أمر احدى طائرات الهليكوبتر بالتوجه الى مدينة الاسكندرية لاحضار قطعة من « البسبوسة » لحفيده !!

وهناك بعض المثقفين المصريين ينحون باللائمة على السادات لانه (خان

روح وثقافة شعبه عندما تقارب مع الغرب) بينما لم يجد هؤلاء ما يقولونه عن الروابط الوثيقة التي اقامها عبد الناصر مع الانظمة الشيوعية ، على الرغم من انمبادىء هذه الدول اكثر بعدا من المبادىءالتي يؤمن بها المجتمع المصري اذا ما قورنت بالمثاليات الغربية . وبعض المناهضين للسادات قاموا بمقارنته بالماريشال بيتان ورئيس وزراء فرنسا لافال الذي تعاون مع الرايخ الثالث أو فيدكون كويز لينغ الذي شكل حكومة نرويجية تعاونت مع الحكم النازي عام ١٩٤٢ .

والحقيقة هي ان المصريين أداروا ظهورهم لانور السادات بالضبط كما فعل البريطانيون مع وينستون تشرتشل عندما قرروا الاستغناء عنه عام١٩٤٥، ولكن دون ان ينتقدوا المعركة التي خاضها الرئيس المصري من اجل السلام .

عبد الناصر رحل عن هذا العالم في عام ١٩٧٠ مشيعا بدموع الامة المصرية بكاملها على الرغم منالياس الذي غرقت مصر فيه بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ، أما السادات فقدتركشعبا استعاد شرفه العسكري وتخلص من ويلات الحرب .. ومع ذلك فقد استقبل الشعب رحيله بصمت .

وينبغي ان تضيف الى رد الفعل الانسانيهذا الضيق الذي شعر به عدد متزايد من المصريين تجاه الرئيس خلال السنوات القليلة الاخيرة والذي اثاره تركيز وسائل الاعلام المصرية المختلفة على كل ما كان يفعله الرئيس وزوجته . وهي عملية ارهقتالشعب المصري فلم يكن يمر يوم واحد لا تقوم فيه الاذاعة أو التلفزيون باذاعة أو نقل أحاديث للسادات أو خطب يلقيها لاي مناسبة وفي بعض الاحيان كانت تقوم هذه الاجهزة بتكرار بث هذه المقابلات أو الخطب لاكثر من مرة في اليوم الواحد .

كما كان السادات مغرما بالادلاء بالتصريحات المدوية التي تضاعفت بشكل ملفت للنظر في السنواتالماضية وكتابة مذكراته او المقالات التي كانت تنشر في بعض الصحف وكانت كلها تفتقر الى الحرارة وخفة الدم وكانت تعج بالشعور بالانتصار وكان كثيرا ما يلجا الى سب واحتقار الغير .

وشعر عدد كبير من الناس بالتعاطف مع احدخطباء المساجد بعد أناشمازوا من مشاهدة الرئيس الساداتوهويصرح في التلفزيون في عدة مناسبات ووجهه محتقن من الغضب ويقول « لقد وجه هذا الشيخ السباب لشخصي .. حسنا أين هو الان ، هو ملقى كالكلب في احد السجون » .

وقبل بضعة ايام من تنفيذ عملية اغتياله تجرا احد المواطنين المصريين بالتقدم بشكوى ضد الرئيس المصري « لافراطه في استخدام التلفزيون » .

ومنذ بضع سنوات فقط تخلص السادات وبطريقة فجائية منالمستشار الصحفي الوحيد الذي كان يستحق هذا اللقب وهو السفير تحسين بشير لانه قدم للسادات تقريرا بالاحاديث المعادية التي تدور في المدن ضد السياسة التي ينتهجها الرئيس المصري . وفي عام ١٩٧٩ قالت لنا زوجة احد السياسيين في القاهرة «لقد شعرنا بالملل من كثرة لجوئه الى تذكيرنا بالمنجزات التي حققها لبلده فهو لا يكف عن تكرار انه جلب لنا السلام وحقق لنا النصر في الحرب

وهو يتصرف كشخص قدم لك هدية جميلة لكنه يحضر اليك كل يوم ليسمع منك كلمة « شكرا » ، وينتهي الامر بك في النهاية لان تدفعه من فوق درجات السلم » .

وخليفة عبد الناصر دخل التاريخ من أوسع ابوابه ، لكن صعوده السريع بين نجوم السياسة الدولية اصابه بالدوار الى الحد الذي دفعه في يوم من الايام الى القول ردا على انتقادات وجهها له بعض المعارضين: « انا لا استطيع ان افهم كيف يتجرأ هؤلاء على انتقادي ، وعلى الاستخفاف بي على هذا النحو ... أولا يدركون أن البيت الابيض والاليزيه ، وملكة بريطانيا ، والبابا يوحنا بولس الثاني ، استقبلوني جميعا ؟! » .

واذا كان السادات يشعر ببعض الضيق من بابا الاسكندرية الى درجة انه قرر عزله فان السبب في ذلك يعود الى انه لم ينس مظاهرات الاقباط الاميركيين عندما قام بزيارة للولايات المتحدة .

وجنون العظمة الذي أصيب به السادات والذي لم يقم باستيعابه بطريقة حسنة جعله يتناسى الجروح الاجتماعية لبلاده التي تعاني من اثار النظام الاقتصادي غير الواضح : فنصفه ليبرالي ، ونصفه الاخر موجه وهو نظام وضع هو اسسه عام ١٩٧٤ لكن الخطأ الكبير الذي ارتكبه السادات هو انه فشل في ما نجح سلفه جمال عبد الناصر فيه : وهو اقناع الشعب المصري أن يهتم به وبمصيره .

وفي العزلة التي اغلق نفسه فيها لم يكن هناك شيء يمكن ان ينال منه الا رصاص القتلة الذين قتلوه وهو يرتدي زيه العسكري الذي طلب تصميمه خصيصا ليحتفل « بانتصاره » يوم السادس من شهر اكتوبر من عام ١٩٧٣ .